المحاضرة الرابعة : الحرمان العاطفي وأثره على الطفل

يحتاج الطفل في نموه الانفعالي إلى إشباع حاجات نفسية أساسية من حب وحنان وعطف، فالطفل منذ الميلاد مزود بآليات للتفاعل مع الأم التي تقوم بتلبية كل حاجاته البيولوجية والنفسية وأي انفصال عن هذا الوسط المشبع بالحنان والحب والطمأنينة قد يشكل له انتقالا من موقف الإشباع إلى موقف الإحباط وصعوبة التكيف مع الموقف الجديد. فالحرمان العاطفي كلمة واسعة المعنى لكونها تعبر عن نقص عاطفي في كثير من مجالات الحياة ومتطلبات الشخصية ويعود هذا النقص إلى فقدان الطفل أو المراهق لوالديه مما أثر على حياته النفسية والاجتماعية و السلوكية .

1- تعريف الحرمان العاطفي:

يعرف حسب بولبي Bowlby بأنه:« الحرمان من سبيل حياة أسرية طبيعية بما ينطوي عليه من انقطاع العلاقات والتبادل الوجداني الدائم بالوالدين، ومن ثم فإن الانفصال يقضي إلى خبرة الحرمان، حيث لا يلقى الطفل رعاية أمومية أو أبوية تتيح له فرص التعامل مع الصور الوالدية البديلة على نحو سليم » (قاسم، 1998 : 117).

حسب اجيريا غيرا Ajuria Guerra هو النقص في الحب والحنان والعطف والرعاية من طرف الأم نظرا لكمونها ، مرضها أو الانفصال بسبب الطلاق مع عدم وجود البديل.

و يعرفه بولبي Bowlby بأنه " الحرمان من سبل الحياة الأسرية الطبيعية ، بما ينطوي عليه من انقطاع العلاقات والتبادل الوجداني الدائم بالوالدين ، و من ثم فان الانفصال يقضي إلى خبرة الحرمان الذي يعهد الطفل إلى أسرة بديلة أو مؤسسة اجتماعية ، حيث لا يلقى رعاية كافية تتيح له فرص التعامل مع الصور الوالدية البديلة على نحو سليم " (قاسم ، 2002: 16)

2- العوامل المؤدية إلى الحرمان :

تعددت العوامل المؤدية للحرمان بتعدد مسبباته و منها ما يلي:

2-1- فقدان الوالدين: إن وفاة أحد الوالدين أو كلاهما يؤدي إلى حرمان الطفل من مختلف الجوانب، و غياب الأم يحرمه من إشباع احتياجاته الجسمية و النفسية التي يشعر من خلالها بالرضا العاطفي والثقة، و غياب الأب يؤدي إلى حرمانه من تشكيل هويته و شخصيته بطريقة سليمة.

2-2- الطلاق: هو إنهاء العلاقة الزوجية بين الرجل و المرأة، و هو عبارة عن صدمة عاطفية للأولاد و حرمان من مشاعر الحب و الحنان، فكثير من الأطفال الذين يعانون من الجنوح و الاضطرابات النفسية هم في الغالب قد تعرضوا للحرمان من الرعاية الأسرية السوية، وعانوا من تفكك الكيان الأسري.

2-3- الاهمال و الرفض : يعبر عن اتجاه أحد الوالدين أو كلاهما نحو عدم تقبل طفلهما و النظر إليه على أنه حمل ثقيل مما يؤدي إلى عدم إشباع احتياجات الطفل للحنان و الانتماء.

2-4- العجز الجسمي و العقلي للوالدين: عندما يتعرض الأب إلى مرض يستمر لمدة طويلة مما يدفع الأم للخروج للعمل وهو ما يؤدي إلى نقص في عملية التواصل الوجداني بين الأم كمصدر ثابت ودائم للرعاية و الطفل ، أما بالنسبة لمرض الأم خاصة العقلي و الحرمان منها فينطوي على مخاطر شديدة على نواحي شخصية الطفل ، ففقدانه لأمه فقدانا تاما ويجعل رعايته توكل إلى أقارب أو دور الرعاية.

2-5- العجز الاقتصادي: و هو عجز الآباء عن توفير متطلبات الأبناء من مأكل و مسكن وظروف المعيشة المناسبة مع قدراتهم المالية المتوفرة، من ثم يلجأ الوالدان لمؤسسات بديلة تنجح من وجهة نظرهم في تلبية حاجيات الأبناء .

2-6- العلاقات غير الشرعية: و التي تعتبر أساس حرمان الطفل من الرعاية الوالدية، حيث يكون رفض جسمي و نفسي نحو الأطفال غير الشرعيين، يتمثل في رميهم على قارعة الطريق أو قد يكون بالتنازل عنهم لإحدى المؤسسات الاجتماعية مما يؤدي إلى أضرار بالغة الخطورة في تصدع شخصيته .

3- أنواع الحرمان العاطفي:

يتخذ الحرمان العاطفي عدة أشكال يؤثر كل منها بطريقته الخاصة على الطفل ونموه وصحته على كل المستويات.

3-1- حسب زمن الفقدان :

3-1-1- الحرمان العاطفي الكلي: وهو فقدان الطفل لأية علاقة بالأم، أو من يحل محلها، وذلك منذ الشهور الأولى للحياة والنشأة في مؤسسات رعاية الأطفال المحرومين كمجال حيوي ، وللحرمان الكلي آثار سيئة وخطيرة ودائمة على نمو الطفل جسميا وعقليا وعاطفيا واجتماعيا ، ففي فترة الطفولة تظهر بعض الاضطرابات الانفعالية العدوانية كوسيلة للتعويض إلا أن هذه الأفعال تظل بالضرورة ضمن المؤسسة التي يعيشون فيها، ونادرا ما تدخل في نطاق ظاهرة الانحراف الاجتماعي وعندما يكبرون يبدوا عليهم إجمالا الخوف من مجابهة الحياة وتحدياتها **(حجازي 1995 :173)** ، فتأثير هذا الحرمان على الطفل أعمق وأخطر، إذ يعوق تماما قدرته على إقامة علاقات مع غيره لأنه افتقد أهم العلاقات **(السيد، 1995 :08)**

3-1-2- الحرمان العاطفي الجزئي : وهو الحالة التي يفقد فيها الطفل أحد الوالدين أو كليهما بعد فترة من الزمن، حيث تتوقف آثار هذا النوع من الحرمان على عدة عوامل تحدد مدى شدته، وهذه العوامل هي على التوالي:

- **السن** : فكلما كان سن الطفل صغيرا كانت آثار الحرمان قوية، والعكس صحيح .
- **ظروف الحرمان** :تعد من العوامل المهمة في تقويم آثاره، كفقدان أحد الوالدين بعد مرض مزمن طويل يكون أثره أقل وطأة من الموت المفاجئ، فالتهيؤ النفسي يلعب دورا كبيرا في رد فعل الطفل آنذاك.
- **العلاقة السابقة : تتحدد** آثار الحرمان حسب نوعية علاقة الطفل بالشخص المفقود، فكلما كانت علاقة الطفل متينة و آمنة كلما كانت استجابته للفقدان أكثر شدة و عنفا.

- **النبذ العاطفي:** و في هذا النوع من الحرمان العاطفي يظل الطفل مقيما مع أهله حتى و إن وجدت روابط سيئة في الجو الأسري، حيث لا يحدث الانفصال، و لا تنهار العلاقة كليا و لا يتخلى الوالدان عن الطفل بشكل صريح فالنبذ العاطفي يتضمن نوعا من المعاملة القاسية اتجاه الطفل مما يولد لديه كراهية للسلطة الأبوية و يزرع فيه الاكتئاب و الإحباط و الحساسية المفرطة وروح الانتقام.

وحسب **هاريس هاريس Harris** تنقسم خبرات الانفصال إلى أربعة أشكال هي :

- **الانفصال قصير المدى المتكرر** :مثل خروج الأم لميدان العمل وترك الطفل ساعات يوميا مع شخص آخر يقوم على رعايته والعناية به، غير أنه لا يرتبط بالطفل عاطفيا.
- **الانفصال قصير المدى غير المتكرر** : مثل إيداع الطفل بالمستشفيات، حيث يتلقى رعاية فيها لمدة قصيرة أو يوضع مع الراشدين يقومون على رعايته، غير مألوفين له لعدة أيام أو أسابيع قليلة.
- **الانفصال طويل المدى المؤقت** : مثل انفصال الطفل عن أمه أو والديه لأسابيع أو شهور عدة لأسباب مختلفة وترك الطفل مع أشخاص آخرين أو في رعاية بديلة.
- **الانفصال الدائم** :حيث يفقد الطفل والديه تماما وبصفة دائمة مستمرة لموتهما أو لبعض تبعات الطلاق مثلا وهنا نجد أن الطفل يستجيب للغياب المستمر للشخص الذي كان يرعاه بالحنين إليه ورفض متابعة الآخرين الذين حلوا محل الوالدين في رعايته.

3-2- حسب نوع الفقدان :

3-2-1- الحرمان العاطفي بسبب غياب الأم: الأم هي أول موضوع يميز الطفل عن ذاته فهي تشكل أول علاقة مع الآخرين فوجودها يبعث فيه الشعور بذاته وبالآخرين، و بالود و التوجيه اللذان تزودهما به يعملان على تحقيق التوازن النفسي ويمكن لهذه العلاقة أن تحدد موقفا أساسيا غير واعي يتحكم في علاقاته المستقبلية ، لذلك فإن غياب الأم يؤثر سلبا على نمو الطفل ويخلق لديه عددا من الاضطرابات النفسية و الانفعالية.

3-2-2- الحرمان العاطفي بسبب غياب الأب: يشغل الأب بدوره مكانة لا تقل أهمية عن مكانة الأم بالنسبة للطفل ووجوده يعتبر أساسيا في تكوين شخصية طفله، إذ يبعث فيه الشعور بالراحة والطمأنينة والأمن. فهو يعتبر رمزا للواقع يزود الطفل بالمعايير الخارجية ويهيئه للتكيف مع المحيط ، وفقدانه أو غيابه قد يؤدي إلى ظهور سلوكات مضادة للمجتمع نتيجة انعدام الرقابة و التوجيه التي يفرضها الأب .

4- آثار الحرمان العاطفي على نمو وتطور الطفل:

إن حرمان الأطفال من الرعاية الوالدية يؤثر تأثيرا كبيرا على شخصيتهم و طباعهم ونموهم في مختلف الجوانب الانفعالية والاجتماعية والمعرفية ... وعادة ما يؤدي هذا الحرمان إلى مجموعة من المشاكل كالاضطرابات التي يظهر تأثيرها عقب الحرمان مباشرة أو في مراحل متقدمة من العمر. ومن أهم تلك الآثار تذكر ميموني (2003) :

1-4 الآثار الجسمية : يؤثر الحرمان على صحة الجسم، وقد أكد الباحثون على ارتفاع مرضية الأطفال في اضطرابات متنوعة ، حيث يظهر الإحباط كعامل أساسي في مرض و وفيات الأطفال .

2-4 الآثار النفسية – حركية : وأبرزها تأخر حركي جزئي أو كلي وتأخر في اكتساب الوضعيات كالجلوس والحبو والمشي . إيقاعات مثل : تأرجح الرأس أو كل الجسم في تمايل مستمر من الوراء إلى الأمام أو من اليمين إلى الشمال ، مص الأصابع اللعب بالأيدي، ضرب الرأس ... وتستعمل هذه السلوكيات الآلية من طرف الطفل لتهدئة القلق و كسلوك شهواني ذاتي.

ونجد أيضا اضطرابات حركية فيما يخص القبض : عدم التحكم في اليد و ضعف التنسيق بين البصري الحركي .

3-4 - اضطراب الذكاء و اللغة : ينخفض حاصل النمو بقدر زيادة مدة بقاء الطفل بالمؤسسة، يضطرب النمو، و يمس التدهور تأخرا كليا أو جزئيا للغة ، لغة آلية فقيرة ، الذكاء العام و تكوين المفاهيم والتجديد، ضعف الفهم و التركيز ...

4-4- اضطراب العلاقة الاجتماعية : قد يبدو بعض هؤلاء الأطفال ظاهريا اجتماعيون و لهم علاقات جيدة مع الآخرين لكن في الواقع هي علاقات سطحية تزول بزوال اهتمام الآخر، إن علاقاتهم سطحية و تعلقهم عابر مدى عبور الأشخاص و هذا لتعدد أوجه الأمومية و عدم ثباتها ، كما قد نجد بعضهم منطويا لا يبالي بالآخر و عند الإقتراب منه يبكي و ينسحب.

5-4 اضطرابات معرفة الذات : وتتمثل في ضعف تعرف الطفل على جسمه من خلال عناية و معاملة الأم له و توظيفها لجسمه بملاطفته و لمسه و تقبيله، لكن الطفل المحروم عاطفيا لا يحظى بهذه العناية الوجدانية و يعامل كأنه موضوع خلال الأكل والنظافة وغيرها.

6-4- اضطرابات السلوك : ومن أبرزها العدوان في شكليه الذاتي (ضرب رأسه، عض يديه و لطم وجهه أو نتف شعره ارتماء على الأرض و تشنجات تحت تأثير الغضب و الإحباط وعدوان نحو الآخر و خاصة مع الأطفال لأن الكبار لا يقبلونه فينتقم من الأصغر منه أو الأضعف . كما نجد أيضا مشكلات اللاإرادي والاضطرابات التنفسية والهضمية .

كما تشير الدراسات إلى وجود أثار بعيدة المدى يمكن أن تصبح أحيانا نكبات على الأطفال الذين يمرون بخبرات مؤلمة نتيجة الحرمان الشديد من الأم وعدم وجود أي فرصة لتكوين ارتباط مع صورة الأم أثناء السنوات الثلاث الأولى أو حرمان الطفل من أمه لمدة ثلاثة أشهر على الأقل و قد تمتد لأكثر من سنة أثناء السنوات الثلاث أو الأربع الأولى أو الانتقال بين صورة و أخرى للأم في فترة نفسها مما يؤدي إلى تكوين ميول مضادة للمجتمع وعدم القدرة على تكوين علاقات اجتماعية سليمة مع الآخرين و الميل للانعزال و البرود الانفعالي والميول الإتكالية و الغضب و السرقة و الكذب.